الخيال الرومانسى والإيمان بالروح

تحيط بفكرة الرومانسية فى أذهان الكثيرين ضبابية تفضى فى أغلب الأحيان إلى تصورات غير دقيقة خاصة فيما يتعلق بالشعر والشعراء. والظنون الشائعة حول الشعر الرومانسى توحى بأنه شعر مستغرق فى الذات يدور حولها ويعالج همومها بل ويهرب من مواجهة الحياة الواقعية طلبا لنوع مستحيل من البراءة أو الفطرة أو الاتحاد بالطبيعة أو الحب المثالى المخفق دائما أما الشعراء الرومانتيكيون فهم عند أصحاب الأفكار المتعجلة مجرد أشباح بشرية يعانون من الهزال البدنى والشرود الفكرى والإغماء العاطفى. والحقيقة أن مثل هذه الأفكار تشيع دائما فى مجال النقد لهذا التيار حيث تبدو الظواهر السلبية فى فترة انحسار التيار وكأنها هى جوهر طبيعته. ولقد كانت الرومانسية فى مطلع ظهورها ثورة أدبية عارمة جاءت لتطلق العاطفة من إسار قبضة التقاليد والعادات وحتمية المنطق وبرودة العقل. ولقد حاول الشعراء الرومانتيكيون فى أوربا. الإنجليز والفرنسيون والألمان أن يؤسسوا رؤية جديدة تماما فى ميدان التجربة الشعرية ومن أبرز عناصر هذه التجربة «الخيال الرومانسى» الذى اعتمدت عليه الرومانسية كطاقة خلاقة مبدعة بعد أن جعله الرومانسيون فى مركز القيادة بدلا من العقل يقول وليم بليك عن الخيال:

«عالم الخيال هذا هو عالم الأبدية. إنه الصدر الإلهى الذى سيضمنا إليه بعد الخلاص من جسدنا الطينى. عالم الخيال هذا لا نهائى وأبدى على حين أن عالم التكاثر أو العالم الطينى موقوت ومتناه. يوجد فى عالم الخيال الحقائق الدائمة لكل ما نراه منعكسة على تلك المرآة الطينية فى الطبيعة، كل الأشياء متضمنة أشكالها الأبدية فى الجسم الإلهى».

ويقول كولردج:

«أومن أن الخيال الأول هو القوة الحية والمحرك الأول لكل إدراك إنسانى وأنه تكرار للعقل الأبدى للخلق فى «أنا اللانهائى»، ويقول سير موريس بورا فى كتابه «الخيال الرومانسى» والذى ترجمه الأستاذ «إبراهيم الصيرفى»:

«والرومانسيون يواجهون تلك القضية وهو يعنى مخلوقات الخيال فى قوة وعزم وهم يصرون فضلا عن ابتعادهم عن التفكير فى أن الخيال إنما يعالج ما لا وجود له على أنه إنما يكشف نوعا ما من الحقيقة وهم يرون أنه حين ينشط يرى أشياء يعمى العقل العادى عن رؤيتها وأنه يتصل اتصالا وثيقا بالبصيرة أو الشعور أو الحدس والحقيقة أن الخيال والبصيرة لا ينفصلان فى الواقع وإنما يكونان موهبة واحدة فى كل الأغراض العملية فالبصيرة توقظ الخيال ليعمل وهو بدوره يزيد فى حدتها عندما ينشط، وهذا هو الغرض الذى كتب الرومانسيون على أساسه».

ولقد حرص الشعراء الرومانسيون على ما أسموه بالوحدة الشاملة بين الحواس بين المرئى وغير المرئى بين الجزئى والكلى بين ما هو محدود

ومـــا هو مطلق وتحدث كولردج عن هـــذه الوحدة فى معرض حديثه عن ورد روث فقال:

«كانت وحدة الشـــعور العميق بالفكر الثاقب والتوازن الدقيق للحقيقة مع ملكة الخيال متحدة فى تشكيل المادة وهى فوق ذلك الهبة الأصيلة لنشـــر النغمة وتهيئـــة الجو مصحوبـــا بالعمق والارتفاع لأشـــكال العالم المثالى وحوادثه ومواقفه تلك التى طمست العادة لألأها وأطفأت شرارتها وجففـــت أنداءها فى نظر المشـــاهد العادى»، ولقد كان إيمان وليم بليك يفوق إيمان كل الشعراء الآخرين حين يقول:

«إن قـــوة واحدة فقط هى التى تصنع الشـــاعر تلك هـــى قوة الخيال الرؤيا الالهية»، أما جون كيتس فكان حبه للعالم المرئى أعظم من حب بليـــك له ولكنه لا يفترق عنه فى الاعتقاد بأن الحقيقة المطلقة لا توجد إلا فى الخيال وحده، ويصور كيتس ما يعنيه بالخيال فى قصيدة «النوم والشـــعر» والتى يتســـاءل فيها عن العلة فى فقدان الخيال لقوته القديمة ولمجاله، يقول جون كيتس:

أهناك فى وسع الإنسان اليوم دائرة
تبلغ من الضيق بحيث لا يستطيع الخيال
السامى أن يحلق فيها حرا
كما اعتاد قديما؟ حيث يعد جياده
وينطلق مخترقا الضوء صانعا الأعاجيب
فوق السحب؟ ألم يرنا جميعا ذلك
من الفضاء الأبدى الصافى
إلى الأنفاس الصغيرة للبراعم الجديدة التى تتفتح؟

ما لجبهة جوبيتر العريضة من مغزى
إلى مراعى أبريل الخضراء

أمــا بيــرس بيش شــيلى فرغــم اختلافه عــن أضرابه من الشــعراء الرومانسيين كما يقول سير بورا إلا أنه لا يقل إيمانا بالخيال ويعبر عن نظريته الشعرية فى كتابه «برومثيوس طليقا» حين يقول:

لسوف يرقب من ساعة الفجر حتى الغروب
أشعة الشمس المنعكسة فوق البحيرة
النحلات الصفراء فوق براعم العليق
لن يصغى ولن يرى أى أشياء تكون
ولكنه يستطيع من خلال تلك المخلوقات
أن يخلق خلقا أكثر صدقا من الإنسان الحى

وشيلى يرى:

«إن الشــاعر لا يدرك الحاضر إدراكا قويا كما هو فحســب، ولا هو يكشف تلك القوانين التى يتحتم أن تنتظم الأشياء الحاضرة فى داخلها فقــط، ولكنه يدرك المســتقبل فــى الحاضر وأفكاره هــى بذرة الزهرة والفاكهة للوقت الماضى. إن الشــاعر يشــترك فى الأبدى واللانهائى والواحد».

ولا شك أن هؤلاء الشعراء الذين حاولوا البحث عن الحقيقة من خلال تفجير قوة الخيال وتحطيم جدران العقل الكلاسيكى وخلق مجال جديد للرؤية الشعرية هؤلاء الشعراء لم يكونوا أبدا مجرد قطط عمياء تبحث عن ذواتها بل كانوا قادة شجعان كما قال بورا عنهم:

«كانت تلك الريادة الجريئة إلى عالم المجهول والتى يقودها إخلاص مدفــق وإيمان عميق بعيدة كل البعد عن أن تكون اســتغراقا عاطفيا فى الذات فقد كان هؤلاء الشــعراء مقتنعين بأنهم يســتطيعون الكشــف عن أشــياء بالغة الأهمية وأنهم يملكون بالشــعر مفتاحا لا يتمتع به الناس. وقد كانوا مهيئين لتكريس ذواتهم لهذا العمل وقد دفعوا الكثير فى سبيله بوسائل مختلفة. إن أهم ما يميز الحركة الرومانتيكية فى الشعر العالمى أنها أضعفت من الإيمان المطلق بالعقل ودعمت الإيمان المطلق بالروح».

❑❑❑